يحدّد العمل، وطبيعة العمل، من أجل التحرير. الكفاح الفلسطيني، أو العربي ـ الفلسطيني، ضد الصهيونية، هو، في جوهره، كفاح ضد الامبريالية، ويبقى في جميع مراحله ضمن هذا الاطار.

لكن إذا كان التحالف مع البلدان الاشتراكية، ومع القوى التقدمية في العالم، يؤلف نقطة واضحة بشكل كاف، فهناك غموض والتباس كبيران في مجال العلاقة مع حكومات البلدان العربية، من جهة، ومع القوى السياسية الموجودة في الساحة العربية، من جهة أخرى.

قد يخيل، لأول وهلة، أن القول بالتحالف التقدمي، وبالصراع ضد الامبريالية، ينطوي، بداهة، على الموقف المتصلب في الساحة العربية تجاه «الاعتدال»، وتجاه القوى السياسية الموالية، بشكل أو بآخر، للبلدان الرأسمالية المتطورة.

ان الامر أعقد من ذلك بكثير.

فمن جهة، تؤلف القوى السياسية العربية «المعتدلة» الرسمية، أو الشعبية، بمختلف فئاتها، جزءاً واقعياً، وقسرياً، في حركة التحرر الوطني العربية، واقصاء هذا الجزء، باعتباره غير موجود، لا يعني، مطلقاً، ولا يمكن ان يعني، عدم تأثيره، أو الحيلولة دون تأثيره، في مسار المعركة التحررية في المديين، القريب والبعيد. الحكومة «المعتدلة» يمكن ان تعقد صفقات كامب ـ ديفيدية، ويمكن ان تقوم بتسهيل ضرب المخيمات، أو حتى بتسهيل احتلال البلد، أو جزء منه. الحكومة «المعتدلة» يمكن، ان تطعن من الخلف، وان تتسبب بالمجازر. في كل هذه الافتراضات، تؤلف القوى السياسية العربية «المعتدلة» عاملاً سلبياً، كبيراً أو صغيراً، في حركة التحرر الوطني العربية.

ومن جهة اخرى، فان القوى السياسية العربية، سواء «أمعتدلة» كانت أو «راديكالية»، لا تنجو، هي أيضاً، من العدوان الأمبريالي. في التجربة اللبنانية القاسية، انتشر طرح سخيف يبرر العدوان الاسرائيلي، ويعتبره «تحريراً» للبنان من الغرباء، من جهة، وموجهاً ضد الفلسطينيين، من جهة أخرى. لكن تبين ان العدوان كان موجهاً ضد اللبنانيين بذات المستوى الذي كان فيه ضد الفلسطينيين، ليس فقط لان القنابل لا تميز، بطبيعة الحال، بين اللبناني والفلسطيني، وانما، أيضاً، لان الاحتلال كان احتلالاً مقصوداً للأرض اللبنانية، وتهجيراً للبنانيين، وتدميراً للاقتصاد اللبناني، وللحياة اللبنانية اليومية. مع ذلك لم «تستفد» القوى السياسية اللبنانية «المعتدلة» من التجربة القاسية، وبقيت الأمور تفسر لديها على أساس تبرير الفعل الامبريالي، والصاق سبب العدوان بهذا الطرف الوطني، أو بذاك.

ما عسى يكون الموقف الذي يجب ان تقفه القوى الوطنية تجاه ذلك ؟

الجواب الذي يتم واقعياً على الساحة العربية هو التحويل العضوي لصراع الوطنيين مع الامبريالية الى صراع داخلي عربي. هذا ما يجري، عملياً، منذ الخمسينات.

تبدو المسألة وكأن الوطنيين العرب لا يستطيعون الممارسة الفعلية المجدية للصراع مع الامبريالية، ما دام «الاعتدال» العربي يقوم، بشكل أو بآخر، بالتعاون مع الدول الرأسمالية الكبرى، أي مع القيادة السياسية العليا للامبريالية؛ وفي الوقت عينه لا يمكن لـ «الاعتدال»، ان ينتهي، من دون انهاء النفوذ الامبريالي في البلدان العربية. إذن، هي مسألة اعقد بكثير من مسألة «تربيع الدائرة» التي شغلت باحثي القرون الوسطى.